



حلّت ساعة تقاسم مناطق النفوذ والمصالح في سوريا وبرز وزير خارجية روسيا سيرغي لافروف مهندساً بارعاً يملك مفاتيح الدار وخرائط سوريا الجديدة. خريطة لافروف ليست خريطة رسم الحدود على نسق سايكس- بيكر، إنها ترتكز على قاعدة الوصاية الروسية على سوريا بمباركة وشراكة أميركية. مع تطمئنات عملية وفعالية لإسرائيل عنوانها الجولان، ونفوذٌ مضمونٌ لإيران وتركيا في صفقة التوازنات العسكرية والمقاييس، وضمان موقع حكم ذاتي للأكراد، وتحويل سوريا إلى دولة شبه منزوعة السلاح ومنزوعة القرار السياسي. تقسيم سمي هذا أو تقاسم نفوذ، إن سوريا الأمس ولّت والكلام عن انتصار بشار الأسد يتوقف عند استخدام نفسه في حرب على إرهاب أتى باستدعاء النظام السوري له وباستثمار خارجي لا أحد بريء منه على الإطلاق. وللتأكيد، إن تقويض حزب البعث الحاكم واضمحلاله التدريجي سينعكس على النظام وعلى الرئيس لأن منطق حزب البعث هو الاستفراد بالسلطة والحكم، وهذا دخل خانة «كان في الزمان».

كل هذا يُسعد الشريك الصامت الموفق تماماً على تحويل سوريا إلى وصاية روسية توزع الأراضي والممرات والطرقات الإقليمية، فأميركا تريد سوريا «منزوعة الأستان». فوداعاً للدولة المركزية في سوريا لأن استمرار تلك المركزية سيجعل سوريا الغد غير مستقرة، وهذا ما لا تتنماه الشراكة الروسية- الأميركيـة- الأوروبية- التركية- الإيرانية- الإسرائيليـة. ذلك أن خريطة لافروف أعادت تعريف الاستقرار على أساس توزيع الحصص كما ارتآها لافروف. وكل ذلك الكلام المسرب عن استكمال واشنطن استراتيجية لاحتواء النفوذ في سوريا والعراق واليمن لکبح «أنـى إـیران»، إنـما هو کلام معمـول للاستهلاـك العربي لا غير.

الديبلوماسية الأميركيـة، المدنية والعسكرية، تتشاور مع الـديـبلومـاسـية الروسـية دومـاً وراء الكـوالـيس في كلـ المـلـفـات الإـقـليمـية - وهذا ليس مستغرباً سـوى أنـ الكـثيرـ منـ تلكـ المشـاورـات يـبقىـ هذهـ الأيامـ سـراًـ مـطبـقاًـ عـلـىـ حـلفـاءـ الـاثـنـيـنـ فيـ منـطـقـةـ الشـرقـ الأوسطـ وأـكـثـرـهـمـ حـلـفاءـ لـلـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ. فـلاـ شـيءـ تـغـيـرـ جـذـرـياًـ فـيـ التـفـاهـمـاتـ الـأـمـيرـكـيـةـ الـرـوـسـيـةـ فـيـ شـأنـ النـزـاعـاتـ فـيـ

المنطقة العربية مع استلام الرئيس دونالد ترامب الرئاسة الأميركيّة. فهو سار على خطى سلفه باراك أوباما فعلياً وعملياً، إنما صعد لفظياً وبوعود فارغة ما ليث أن تراجع عنها لأسباب «براغماتية»- أي من أجل المصالح الأميركيّة كما تراها واشنطن. والذين يعتقدون أن الكونغرس الأميركي سيحتاج ويعرض ويعرقل سياسات ترامب التهادنية فعلياً مع إيران، إنما يعتمد سياسة التمنيات لا غير. فأولوية الكونغرس الأميركي هي إسرائيل، وإسرائيل راضية.

إسرائيل راضية لأن الصفقات والتفاهمات ضمنت لها هضبة الجولان كحزام أمني وكأراضٍ لها كامر واقع، بدلاً من بقائها أرضاً سورية محتلة. قد يقال إن الأمم المتحدة وقراراتها وقوفة فك الاشتباك (اندوف) هي الفاصل الشرعي الذي يرفض ضم إسرائيل للجولان منذ احتلالها له قبل 32 سنة. لكن خريطة لافروف ضمنت لإسرائيل جبهة محيدة بضمانت روسيّة وأميركيّة دولية كما طمأنتها بأنه لن تكون هناك مطالبة سورية جدية لاستعادة الجولان، لأن سورية القديمة زالت وسورية الجديدة باتت مربعات نفوذ روسي-أميري-تركي-إيراني بلا قيادة مركزية تذكر. إنها سورية المُكَبَّلة التي تم حذفها من المعادلة الاستراتيجية مع إسرائيل بعد حذف مصر تفاوضياً عبر «كامب ديفيد» والعراق عسكرياً عبر حرب الرئيس جورج دبليو بوش في العراق. إنها سورية شبه المنزوعة السلاح والأستان.

تركيا وجدت في العلاقة مع روسيا سلماً الإنقاذ. لذلك قايضت حلب باكراً وهي تدرك تماماً أن حلب كان المفصل الحاسم في مستقبل سورية والمعارضة فيها. الرئيس الروسي فلاديمير بوتين روض نظيره التركي رجب طيب أردوغان، وتمكن من إخضاعه للتخلّي الجزئي عن رعايته لمشروع «الإخوان المسلمين»، وأردوغان رضخ أفاله تكتيكياً ومرحلياً. فهو وجد في علاقته مع روسيا أهم سلاح له مع أوروبا الرافضة لانتقامه إليها والتي تكاد تكون نادمة على القبول ببعضوية تركيا في حلف شمال الأطلسي (الناتو) لو لا كونها براغماتية تنظر إلى موازين الفوائد والخساراة.

تلاقى الرجال في موسكو وأنقرة على الكراهية لـ«الناتو»- أحدهما يعتبرأ هذا الحلف عدواً لدولته والآخر يراه شرّاً لا بد منه. المستشار الألمانية أنجيلا مركل احتجت على قيام تركيا العضو في حلف شمال الأطلسي بعقد صفقة سلاح هذا الأسبوع مع روسيا على أساس أن التناقض هذا ليس أبداً نظرياً. لم تتحج مركل على الرعاية الروسية لصفقة المقايضة التركية- الإيرانية في الأراضي السورية، والتي انطوت على سيطرة تركية عسكرية في الشمال السوري وعلى ضمان جغرافيا الممر الإيراني في الأرضي السورية الأساسي لاستراتيجية النفوذ الإيرانية في الهلال الممتد من طهران إلى بيروت عبر أراضي العراق وسوريا. فهي راعية على طريقتها لإيران ومشاريعها الإقليمية باسم صيانة الاتفاق النووي مع إيران من أي اهتزاز مهما تجاوزت طهران في أي نطاق آخر.

والآن، حصلت تركيا على تواجدها عسكرياً شمال سوريا إلى أجلٍ غير مسمى بموافقة روسية-أمريكية. أما ماذا ستفعل تركيا بـ«الداعش» الذين يصدرون إليها، فهذا موضوع آخر. وماذا سيفعل أردوغان بمشروع «الإخوان المسلمين» علماً بأن روسيا تصنع علاقة أساسية لها مع مصر، فهذا يستحق التدقيق القراءة المعمقة لاحقاً. في الوقت الحاضر، تحرص موسكو على الدور المصري في سوريا لكنها تتحدث بلغة الميدان- وفي هذه اللغة أولويتها تركية وإيرانية.

حالياً، ترعى روسيا مقايضة تركية-إيرانية إذ تتمتع تركيا بسيطرتها في الشمال السوري وتسيطر إيران على جنوب العاصمة السورية بما يضمن لها أمرين: المشاركة في توقيض استقلالية القرار في أية حكومة سورية في دمشق أولاً. الممر الضروري في الاستراتيجية الإيرانية ثانياً. لعل موسكو تنفذ وعود أخلاقه السورية من الميليشيات إنما بعد زوال «داعش» وبعد تكبيل المعارضة السورية بكل أطيافها وتحييدها. فإن الميليشيات التابعة لطهران شيء، وضمان نتائج الاستثمارات

الإيرانية في سوريا شيء آخر.

واشنطن لا تمانع. كل التوعّد والتهديد الأميركي الإيراني إنما هو من قبيل فولكلور كبح الغايات الإيرانية والتوسّع الإيراني في الجغرافيا العربية. فهذا «آخرهم» للأميركيين، في نهاية المطاف. كل تلك المهاجمات والتهديدات اللفظية محسوبة. فلن تميّز إدارة ترامب الاتفاق النووي مع إيران مهما صعدت السفيرة الأمريكية لدى الأمم المتحدة نيكي هالي، ولن يوقف «التحالف الدولي» الذي تقوده واشنطن استيلاء إيران على الجغرافيا التي يتم تحريرها من «داعش»، لا في سوريا ولا في العراق. لن تكون هناك خطوات أميركية لاحتواء نفوذ إيران في سوريا والعراق، بعد استكمال العمليات العسكرية ضد «داعش»، فعندئذ يكون قد فات الأوان. فقد وعدت إدارة ترامب وأخلت بالوعود. أما استراتيجيةها الموعودة فإنما هي لرفع العتب والاستغلال.

الغياب الأميركي، بل التغيب المعمد، ترك الساحة مفتوحة لروسيا لرسم خريطة جديدة لسوريا، وأبعد. لقد أغلقت واشنطن صفحة التنافس الاستراتيجي والاقتصادي والأمني مع موسكو وقررت أن الزمن الراهن يسمح بصفقات التفاهم والاقتسام في كافة أنحاء المنطقة العربية.

في العراق، حيث التقسيم بات حتمياً، كلاهما يعارض لفظياً التسرع الكردي إلى الاستفتاء، وثم تقسم العراق كأمر واقع. فعلياً، كلاهما يدرك تماماً أن تقسيم العراق ليس فقط لصالح الكرد الذين يطالبون بدولة مستقلة، وإنما هو أيضاً لمصلحة إيران التي تجتاح الأراضي العراقية حتماً لتنفيذ مشروع الهلال الفارسي الذي يسمى أيضاً - الهلال الشيعي - كلاهما يعرف تماماً أن ما سيتبيّن في العراق للسنة هو عبارة عن خسارة كبرى لهم، لأن بالأمس كانوا أصحاب القرار والسيادة، وهم يسيّبون دويلة خالية من النفوذ والقدرات والموارد. كلاهما يقرأ جيداً الوهن العربي والأولويات الخليجية، وهما بعدها بجديد ما في الأولوية الخليجية، وهي اليمن.

في اليمن تلتقي الرغبة الأميركيّة والروسية لمساعدة السعودية على الانتهاء من أزمة اليمن، لكنهما تعرّفان تماماً خريطة الطريق إلى الحل، ولا تسلكانها. فالعنوان الرئيسي لحل أزمة اليمن هو طهران، لكن واشنطن وموسكو لا يقصدانه عمداً مع أنهما تدركان أن إيران لن تتخلّى عن بوابة مهمة لها إلى الحدود السعودية عبر الحوثيين. هنا أيضاً، تتكاثر الوعود اللفظية وتقل الإجراءات الفعلية.

جولة سيرغي لافروف على العواصم الأميركيّة، والمشاورات الإيرانية والتركية في عواصم الضامنين الثلاثة في سوريا - روسيا وتركيا وإيران - تؤكّد أن ساعة تقاسم النفوذ حلّت. الغياب العربي عنها مؤلم ومؤسف وشهادة على الوضع العربي المتشتّت بامتياز. نعم، لقد توجّه سيرغي لافروف إلى العواصم العربية في جولة ما قبل الإعلان عن خريطيته. ونعم لقد أفادنا علمًا بأن عواصم عربية مهمة وافتّت ودخلت طرفاً في المعادلات الجديدة. إنما، في نهاية المطاف، إن سوريا والعراق على وشك استبدال خريطة الأمس بخريطة جديدة - اسم الأولى سايكس بيكر واسم الثانية خريطة سيرغي لافروف.